المذاهب الأدبية

تعريف المذهب :

ماذا يعني المذهب الأدبي ، أو المدرسة الأدبية؟

إن المذهب ـ في لغة العرب ـ هو الطريقة ، والمعتقد الذي يُذهب إليه . يقال : ذهب مذهباً حسناً ، ويقال : ما يُدرى له مذهب ، أي وجهة ، ولا أصل . والمذهب : المعتقد الذي يذهب إليه ، والطريقة ، والأصل ، والمُتَوَضَّأ[1] .

والمعنى الاصطلاحي لكلمة (المذهب/ المدرسة) مرتبط بشكل واضح بالأصل اللغوي للكلمة ، إذ هو يعني عند العلماء «مجموعة من الآراء والنظريات العلمية ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً يجعلها وحدة منسّقة[2]» .

أي هو حملة من المعتقدات المختلفة ـ دينية ، أو فكرية ، أو أدبية ـ منظمة ، قائمة على أسس محكمة ، وارتباط وثيق ، مما يهيىء لها الانضباط والانسجام على نحو يعصمها من التناقض والتنافر .

وإن فكرة «المذهب الأدبي» أو «المدرسة الأدبية» موجودة في الأدب العربي وفي البلاغة والنقد العربيين منذ القدم ، فالطبع مذهب ، والصنعة مذهب ، وشعراء ـ من سمّاهم الأصمعي «عبيد الشعر» ـ أصحاب مذهب شعري معين ، وعمود الشعر مذهب شعري ، وفي البلاغة ما سمّي «المذهب الكلامي» وكثير غيره من هذا القبيل .

وإذا كانت فكرة المذهب الأدبي موجودة في الأدب العربي منذ القدم فإن الحق كذلك أن هذه الفكرة لم تأخذ العمق المطلوب ، ولم تتبلور بشكل واضح ذي أسس وملامح فلسفية على نحو ما هو معروف عن المذاهب الحديثة .

---

(١) القاموس المحيط (ذهب) .

(٢) انظر المعجم الوسيط (ذهب) .

نشأة المذاهب الأدبية :

وعلى كل حال فإن المذاهب الأدبية على النحو الذي تُعرف عليه الآن في النقد الحديث لم تكن مألوفة في العصور القديمة ولا في العصور الوسطى حتى عند الأوروبيين أنفسهم .

يقول محمد مندور : «في العصور القديمة لم تُعرف المذاهب الأدبية ، كما لم تعرف في العصور الوسطى ، وإنما أخذت تتكون ابتداء من عصر النهضة . .»[1] .

وإن المذاهب الأدبية لا يوجدها النقد عادة ، ولكنها توجد في إبداع الأدباء والفنانين بسبب حالات نفسية واجتماعية وسياسية مختلفة ، ثم يأتي دور المنظرين من نقاد وفلاسفة ليستقرئوها ، ويستنبطوا قواعدها وأصولها ، فالممارسة دائماً تسبق النظرية .

يقول محمد مندور في أعقاب الكلام السابق : «الذي تجب الفطنة إليه عند البحث عن نشأة المذاهب الأدبية هو أن لا نتصور أنه قد قُصد إلى خلقها ، فوضع الشعراء أو الكتاب أو النقاد أصولها من العدم ، ودعوا إلى اعتناق تلك الأصول . وذلك لأن الحقيقة التاريخية هي أن المذاهب الأدبية حالات نفسية عامة ، ولّدتها حوادث التاريخ وملابسات الحياة في العصور المختلفة ، وجاء الشعراء والكتاب والنقاد ، فوضعوا للتعبير عن هذه الحالات النفسية أصولاً وقواعد تتكون من مجموعها المذاهب . . »[2] .

المذاهب الأدبية فلسفات وإيديولوجيات :

ومما ينبغي ألا يخفى على أحد أن المذاهب الأدبية الغربية ليست نشاطاً معرفياً محايداً ، وهي ليست مجرد نظريات وأفكار في الأدب واللغة والنقد وقضاياها المختلفة فحسب ، ولكنها تمثل فلسفات فكرية ، وتصورات عقدية عن الكون والإنسان والحياة ، بل عن الأديان والألوهية في أحيان غير قليلة ، كما سيتضح عند الكلام على هذه المذاهب ، وعن ظروف نشأتها ، وملابسات تشكلها .

---

(١) انظر في الأدب والنقد : ١٠٤ (القاهرة : ١٩٥٢م) .

(٢) السابق : ١٠٥ .

إن المذاهب الأدبية عند الغربيين ترتبط جميعها بأصول فلسفية وعقدية ، بل إن المذهب الأدبي لا يتشكل ـ أدبياً وفنياً ـ إلا من خلال منظور فكري معيّن إلى الحياة والكون .

يقول شكري عياد : «لا يتم معنى المذهب ـ كحركة أدبية ما ـ حتى تكون له نظرة معينة إلى الكون والمجتمع ، وموقف الشاعر أو الكاتب المبدع منهما ، ولهذا يقوم النقد بوظيفة مهمة في تكوين المذهب ، إذ إنه يشارك الإبداع في تحديد النظرة والموقف . . »[1] .

وقد أطال النقاد في الكلام على ارتباط الأدب والنظريات الأدبية بالإيديولوجيا والتصورات الفلسفية والسياسية المختلفة .

يقول تيري إيغلتون في كتابه «نظرية الأدب»: «النظرية الأدبية مرتبطة بالقناعات السياسية والقيم الإيديولوجية على نحو لا يقبل الانفصال . . ذلك أن أية نظرية ـ معنيّة بالمعنى ، والقيمة ، واللغة ، والشعور ، والتجربة الإنسانية ـ سوف تتورط حتماً مع قناعات أعرض وأعمق عن طبيعة الأفراد والمجتمعات الإنسانية . . إن مثل هذه النظرية الأدبية «الخالصة» هي أسطورة أكاديمية . . ومن جهتي أرى للنظرية الأدبية صلة خاصة وثيقة جداً بالنظام السّياسي . . »[2] .

بل يذهب إيغلتون إلى أبعد من ذلك فيرى أن الأدب لا يتورط في الإيديولوجيات من ناحية المضمون فحسب ، بل يتورط في ذلك حتى في اللغة التي يستخدمها .

يقول : «إن النظرية الأدبية تكشف عن تورطها اللاواعي غالباً مع الإيديولوجيات الحديثة حتى حين تتحاشاها ، وهكذا تنمّ عن نخبويتها ، أو جنسانيتها ، أو فردانيتها ، في اللغة «الجمالية» أو «غير السياسية» عينها التي تجد من الطبيعي أن تستخدمها للنص الأدبي . . »[3] .

---

(١) المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين : ص ٦٢ (سلسلة عالم المعرفة / الكويت) .

(٢) النظرية الأدبية : ٣٢٦ ـ ٣٢٨ .

(٣) السابق : ص٣٢٩ .

وإذا كان الأدب نفسه هو باستمرار نتاج فلسفة معينة ، ولا شيء على الإطلاق اسمه «الفن للفن» أي الفن المجرد عن الهدف والغاية والفكر ، فإن النظرية الأدبية ، أو المذهب الأدبي ، هو أكثر من الأدب ارتباطاً بالفلسفات والعقائد ، لأنه في تنظيره يشارك الإبداع في تحديد النظرة إلى الكون والحياة ، بل هو أدق منه في ذلك ، لأن كل تنظير لا بد أن ينهض على أساس فكري واضح متماسك .

وهكذا راحت المذاهب الأدبية تتوالى في الغرب ـ كما يقول إيليا الحاوي : «الواحد تلو الآخر وفقاً لنظرة شمولية تنتظم الكون ، ومن خلاله الحياة ، والإنسان ، والموقف من الحقيقة . . »[1] .

عناصر المذهب الأدبيّ :

إن لأي مذهب أدبي أو مدرسة أدبية عناصر وشروطاً لا يتكوّن إلا على أساسها ، أو قل لا ينهض حاملاً هذا المصطلح إلا إذا استوفاها ، وهذه العناصر هي :

١ ـ أساس فكري فلسفي ، ينتظم آراءها ، ويكسبها الترابط والانسجام ، ويعصمها من التناقض والخلل . وقد بيّنّا فيما تقدّم أن المذاهب الأدبية هي ـ في الأصل ـ نتاج فلسفات فكرية ، وتصورات عقدية عن الكون والحياة والناس . ومن ثم فإن لكل مذهب أدبي وجهه الفكري بالإضافة إلى وجهه الأدبي أو الفني ، بل إن الثاني ما هو في حقيقته إلا تابع للأول ، صادر عنه ، أو عاكس له على نحو من الأنحاء .

وهكذا يبدو المذهب الأدبي مجموعة من الآراء الفكرية والفنية المترابطة المنضبطة بشكل دقيق ومنظم مما يجعلها وحدة منسجمة يطلق عليها مصطلح «المدرسة» أو «المذهب» .

وقد يكون المذهب الأدبي تأسيساً يقوم على أصول فلسفية وفنية كما ذكرنا ، وقد يكون ثورة على أعراف قديمة ، ودعوة إلى التحرر منها ، لخلق شيء جديد مناقض لها على نحو ما ثار الرومنتيكيون على الكلاسيكية[2] .

---

(١) انظر كتاب «الرمزية والسريالية» ص٩ .

(٢) انظر محمد مندور ، في الأدب والنقد : ص١٠٥ .

٢ ـ **نماذج إبداعية** كافية تشكّل الأساس التطبيقي لـهذا المذهـب أو المدرسـة ، ومن هذه النماذج يستمد النقاد قواعد هذه المدرسة وأصولها ، وهي وحدها البرهـان علـى مـا ينظّـرون لـه مـن الآراء والأفكـار ، ومـا يضعـون مـن القواعـد والأصـول والمصطلحات .

٣ ـ **طائفة من المبدعين** تتبنّى هذا الاتجاه ، وتكتـب فيـه ، وتـروّج لـه ، وتنتـج قدراً كافياً مـن النمـاذج التطبيقيـة ، ممـا يجعلـه مدرسـةً أو مذهبـاً ، لا مجـرد نـزوة شخصية لكاتب أو كاتبين .

ذلك أن المذهب أو المدرسة ـ كما هو ظاهر ـ من اسمه يمثل مجموعـة أو طائفـة من الناس ، ولا يمثل شخصاً واحداً أو نفراً معدودين .

٤ ـ **نقاد ينبّهون** على هذا الاتجاه ، ويستشعرون ما به من جديد ، أو من خروج على المألوف ، ثم ينظّرون له ، ويستنبطون أسسه وقواعده .

ذلك أن النقد هو الذي ينظّر ، ويكتشف الأصول التي يقوم عليها هـذا المذهـب أو ذاك ، مما يكون خافياً على المتلقي العادي .

وهكـذا تتضـافر أصـول فكريـة تقـدم موقفـاً متكـاملاً أو شـبه متكـامل مـن الحيـاة والفـن ، مـع النمـاذج الإبداعيـة التـي تمثـل الجـانب التطبيقـي علـى أيـدي طائفـة مـن الكتـاب ، مـع الجـانب التنظـيري الـذي تقـوم بـه طائفـة مـن النقـاد ، معرّفـةً بـهذا المذهـب ، مميّزة إيـاه مـن المذاهـب أو المـدارس الأخـرى ، ومنبّهـة علـى مـا فيـه من الجـدة والفـرادة .

المذاهب الأدبية الحديثة :

والمذاهب الأدبية التي يتحدّث عنها هذا الكتـاب ، والتـي انتشـرت فـي أدبنـا العربي الحديث ، وراحت طائفة من النقاد تصنّفه بحسبها ، هـي مذاهـب غربيـة ، استُنبطت من أدب غربيّ ، فهي ليست إنتاجاً نقدياً عربياً ، ولا هي اسـتقرئت مـن نماذج الأدب العربي : قديمه أو حديثه ، ولا هي إفرازات مجتمع عربي إسـلامي ، أو حضارة عربية إسلامية .

وإن استحضار مثل هذه الحقيقة يترتب عليه مجموعة من الأمور ، من أبرزها :

١ ـ أن هذه المذاهب التي هي نتاج غربي ـ كما عرفت ـ لا علاقة للأدب العربي بها ، فلهذا الأدب ـ شأن الأدب في كل أمة ـ خصوصية معينة ، تتناسب مع طبيعته ، وبيئته ، ولغته ، والحضارة التي أنتجته .

٢ ـ أن من البدهي أن نجد الأسس الفكرية والفنية التي تقوم عليها هذه المذاهب تتناقض ـ في قليل أو كثير ـ مع التصورات العقدية ، والقواعد الأدبية التي يقوم عليها الأدب العربي ، ما دام كل منهما نتاج حضارة مختلفة في العقيدة ، واللغة ، والظروف .

٣ ـ أن هذا الاختلاف أو التناقض لا ينفي وجود نقاط التقاء هي من طبيعة الآداب جميعاً ، ومن طبيعة النفس البشرية ، ومن ثم فإن الأدب العربي ـ وهو يتعامل مع هذه المذاهب الغربية ـ لا يرفض كلّ ما أتت به ، ولا يستدبره جميعه ، بل يمكن أن يقبل منها أشياء قليلة أو كثيرة مما يعد من القواسم المشتركة بين آداب الأمم جميعها ، ولكنه ـ بطبيعة الحال ـ لن يقبل كلّ شيء .

٤ ـ أن هذه المذاهب الأدبية ليست واحدة في جميع الآداب الغربية ، والنقاد ـ في العادة ـ إنما يتحدّثون عن ملامح عامة لكل مذهب أدبي من هذه المذاهب ، ولكن هنالك بعد ذلك فوارق كثيرة ـ في هذا المذهب ذاته ـ بين بلد أوروبي وآخر ، بل هنالك فوارق كثيرة بين أدباء هذا الاتجاه أو ذاك في البلد الواحد نفسه .

وقد أشار النقد الغربي كثيراً إلى ذلك حتى لا يظن ظانّ أن المذهب الأدبي المعين هو واحد ، أو هو نسخة طبق الأصل ، عند هذا الأديب وذاك وذاك ، ممن ينضوون تحت لوائه ، أو في البلاد الأوروبية جميعها .

يقول بول فان تيغم في كتابه «الرومانسية في الأدب الأوروبي» : «رأى بريمون أن هنالك من الرومانسيات بقدر ما هنالك من الرومانسيين . .

ويرى فاليري أنه ينبغي أن يفقد المرء روح التدقيق ليحاول تعريف الرومانسية . أما مورو ـ أحدث مؤرخي الرومانسية الفرنسية ـ فيرى أنه لن تجد تعريفاً لما كانت طبيعته من طبيعة الأسرار الخفية ...

وقد عَدّ الأستاذ البلجيكي فيرميلين سنة ١٩٢٥ ـ في أثناء بحثه عن جوهر الرومانسية ـ مائة وخمسين تعريفاً من هذه التعريفات . .»[١] .

ويتحدّث تيغم في كتابه عن «الأشكال الوطنية للحركة الرومانسية في كل من ألمانيا ، إنكلترا ، هولاندا ، البلدان السكندينافية» ويبيّن ما بينها من فروق ، وما يميّز كلاً منها من الآخر[٢] .

ولكنّ هذا لا يعني ـ بطبيعة الحال ـ عدم التقاء أصحاب المذهب الأدبي ـ على الرغم من اختلافاتهم وتنوعهم ـ على ملامح عامة ترسم وجه هذا المذهب أو ذاك ، وإلا لما كان مذهباً أصلاً ، ولما استحق أن يحمل هذا المصطلح .

يبيّن ذلك بول فان تيغم فيقول عن الرومانسية : «هل هنالك بين رومانسيّ مختلف البلدان من الخصائص المشتركة ما يكفي لإرساء مثل هذه الدراسة إرساء وطيداً؟ إني أعتقد ذلك . . وليس يعني هذا أن تلك الخصائص تتجلى جميعها بوضوح متساوٍ لدى جميع الكتاب الذين يتناولهم البحث ، بل يكفينا أن نعثر لدى الجميع على هذه الخاصة الرئيسة أو تلك مصحوبةً ـ في كل مرة ـ بعدد جم من الخصائص الثانوية التي لا تقل عنها دلالة ـ حتى نُدْعى إلى اعتبار الكاتب موضوع الكلام رومانسياً . . »[٣] .

وإذن فإن هذه المذاهب الأدبية الغربية تختلف طبيعة كل منها من بلد أوروبي إلى بلد أوروبي آخر اختلافاً كبيراً جداً في أحيان كثيرة ، وذلك بسبب طبيعة كل بلد وظروفه وأحواله النفسية والاجتماعية والسياسية ، وغيرها .

وإذا كان هذا التفاوت موجوداً في الأدب الغربيّ الذي يصدر ـ بشكل عام ـ عن حضارة واحدة ، وتصورات فكرية ذات ملامح رئيسة مشتركة ، فإن المُتَصَوَّر ـ نتيجة لهذا ـ أن يكون التنافر أو التناقض بين أدبنا العربي والإسلاميّ وبين هذه

---

(١) انظر الرومانسية في الأدب الأوروبي : ١٢/١ ـ ١٣ ، ترجمة صيّاح الجهيم ، دمشق : ١٩٨١م .

(٢) السابق : ١٦٧/١ ، وما بعد .

(٣) السابق : ١٨/١ .

المذاهب الأدبية الغربية كبيراً جداً ، وذلك بسبب الاختلاف الجذري بين الحضارتين الغربية والإسلامية اللتين أنتجتا كلاً من الأدبين .

المذاهب الغربية في أدبنا العربي :

سجّلت المذاهب الأدبية الغربية ـ على ما فيها من مجافاة لعقيدتنا وتصوراتنا الفكرية ، ولغتنا ، وذوقنا ، كما ستبيّن ذلك فصول هذا الكتاب ـ حضوراً طاغياً في أدبنا العربي الحديث .

اقتبس كثير من أدبائنا أفكاراً وتصورات وآراء لا حصر لها من هذه المذاهب ، بل راحوا يقلدونها تقليداً ضريراً لا تمييز فيه ولا غربلة ولا اصطفاء ، حتى فشت في أدبنا العربي الحديث ـ نتيجة هذا التقليد ـ عشراتٌ ، بل مئات من الأفكار السقيمة التي تتناقض مع ديننا وقيمنا ، بل تشكل اعتداء صارخاً عليها في أحيان غير قليلة[1] .

وراحت طائفة من نقادنا تقسم أدبنا الحديث إلى مدارس واتجاهات وتيارات على شاكلة هذه المدارس الغربية تماماً ، مستعملين تسمياتها ومصطلحاتها ، وذلك كله في ظل ملابسات غير طبيعية يتم بها الاتصال بالأدب الغربي ، بل بالفكر الغربيّ عامة على نحو ما بيّنّا فيما تقدّم .

بل الأعجب من ذلك أن بعض الباحثين المعاصرين قد طبّق هذه المذاهب على أدبنا العربيّ القديم ، وهو أدب له ظروفه الخاصة ، وبيئته ، وطبيعته ، التي لا يمكن أن تلتقي ـ بحال من الأحوال ـ مع طبيعة الأدب الغربي الحديث الذي هو ـ كما عرفت ـ نتاج ظروف نفسية ، وسياسية ، واجتماعية ، وزمانية ، ومكانية مختلفة كلّ الاختلاف عما عرفه الأدب العربي القديم ، وما تقلّب فيه من الظروف والأحوال .

يقول الدكتور شوقي ضيف ناقلاً عن جب من غير تعليق : «الشعر الجاهلي ـ كما وصلتنا نماذجه ـ لا يعتمد أصحابه على «فن الموسيقى» فقط ، وما يحدثون فيه

---

(١) انظر كتابنا «الحداثة في الشعر العربي المعاصر : حقيقتها وقضاياها» ص٣٧ ـ ٧٣ (دار القلم ، دبي : ١٩٩٦م) .

من قواعد والتزامات دقيقة ، بل هم يعتمدون على فن آخر ، لعله أكثر تعقيداً ، وهو «فن التصوير» ولعل ذلك ما جعل «جب» يقول : إن أدب العرب أدب رومانتيكيّ . . »[1] .

وهذا كلام غير دقيق ، إذ الرومانسية ـ كما سترى من سياق الكلام القادم ـ مذهب غربي له ـ كغيره من المذاهب الغربية ـ أصول فلسفية ، وفنية ، وهو أبعد ما يكون عن تصور الشعر العربي ، ولا سيما الجاهلي منه .

والحق أن الأدب العربي عرف تيارات واتجاهات متنوعة ، ولكنها لا تشكل مذاهب أو مدارس بالمفهوم الاصطلاحي الحديث ، إنها أقرب ـ كما يقول الدكتور شكري عياد ـ إلى «المنازع» منها إلى «المذاهب»[2] .

وليس هذا مقصوراً على العرب فحسب ، فقد ذكرنا فيما سبق عند الكلام على نشأة المذاهب الأدبية الغربية كلام الدكتور محمد مندور الذي ذكر أن الأدب الأوروبي لم يعرف المذاهب الأدبية في عصوره القديمة ، ولا في عصوره الوسطى ، وأن هذه المذاهب أخذت تتشكل ابتداء من عصر النهضة[3] .

وإن موقف الأدب العربي من هذه المذاهب الغربية ينبغي أن يكون ـ شأن موقفه من الفكر الغربيّ عامة ـ موقف اصطفاء واختيار ، أن يستفيد منها لا أن يقلّدها ، أن يعرضها على ميزان عقيدته ولغته وذوقه ، فما اتفق معها أخذه ، وما تناقض معها رفضه ، إنه ليس موقف القبول المطلق ولا الرفض المطلق ، ففي هذه المذاهب بعض ما يصلح لنا ، ولكن فيها الكثير الكثير مما يفسد الذوق والفكر ، ويتناقض مع تصوراتنا العقدية ، ونظرتنا إلى الحياة والإنسان والكون .

ومن الممكن ـ في هذا السياق ـ أن ننظر ـ كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل ـ إلى هذه المذاهب ، لا على أنها متناقضة متنابذة ـ كما تبدو عليه ـ بل على أنها متكاملة متتامّة ، يمثل كلٌّ منها وجهاً من وجوه الأدب أو الحياة .

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ص١٥ (دار المعارف ، بمصر : ط سادسة) .

(٢) المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين : ص٦٢ .

(٣) في الأدب والنقد : ١٠٤ .

بقول عز الدين إسماعيل : «من المألوف عند الناس أن ينظروا إلى هذه المذاهب الثلاثة : الكلاسيكية ، والرومانتيكية ، والواقعية ، على أساس أن بينها صراعاً . والحقيقة أن كلّ مذهب منها يمثل الحدّ الأقصى للون فقط من ألوان النشاط الإنساني ؛ فالدوافع البدائية تؤدي إلى الرومانتيكية ، وإحساسنا بالحقيقة يؤدي إلى الواقعية ، ويؤدي بنا إحساسنا الاجتماعي إلى الكلاسيكية ، أي الفن الذي يحترم فيه الناس القانون والتقاليد . .»[1] .

إن المذاهب الأدبية ـ على نحو ما وصلتنا ـ تبدو متناقضة حقاً ، بل يبدو كلٌّ منها أحادي النظرة ، يمثل وجهاً واحداً فقط من وجوه الحياة ، ومن وجوه الفن كذلك .

وينبغي على أدبنا العربي أن يستفيد من كل وجه إيجابي يعكسه أي مذهب من هذه المذاهب ، وأن يحاول أن يشكل منها مذهبه الأدبي المتكامل المتوازن ، الذي لا يعلي جانباً ويهمل الآخر ، ولا يقيم بناء ويهدم غيره .

«إن المذهب الأدبي المتوازن هو الذي يحافظ على جميع قوى الإنسان والحياة والفن ، ويقيم بينها توازناً ، فلا يفرط بجانب على حساب الآخر . .»[2] .

---

(١) الأدب وفنونه : ص٥٤ .

(٢) السابق نفسه .